الفصل السادس

المدرسة الصفوية

obeikandl.com

obeikandl.com

كان حكم الصفويين فى إيران عصر رخاء وتقدم، فعرفت البلاد فى القرنين العاشر والحادى عشر (السادس عشر والسابع عشر) وفى الربع الأول من القرن الثانى عشر تطوراً كبيراً فى الفنون، وبلغت صناعة التصوير فى النصف الأول من حكمهم الطويل درجة عظيمة من الإبداع والإتقان. لا غرو فإن استيلاء الشاه إسماعيل على هراة [٩٠٧ - ٩٣٠هـ (١٥٠٢ - ١٥٢٤)] وهجرة الفنانين إلى عاصمته تبريز، ثم تعيينه بهزاد مديراً لدار الكتب الملكية وهى فى ذلك الوقت أشبه شيء بمجمع الفنون الجميلة، نقول إن ذلك كله كان باعثًا على نشأة مدرسة جديدة على رأسها خير من أنجبتهم هراة من مصورين، ومن ثم كانت الصلة وثيقة بين فن المدرسة الصفوية فى أول عهدها وبين التقاليد الفنية التى سادت فى الوسط الذى عمل فيه بهزاد ورملاؤه وتلاميذه.

على أن الحروب التى خاض غمارها الشاه إسماعيل جعلت نصيبه فى تعضيد الفنون أقل من نصيب ابنه الشاه طهماسب، الذى خلفه على عرش إيران سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٤) وظل يحكم البلاد حتى سنة ٩٨٤هـ (١٥٧٦).

وقد كان الشاه طهماسب نفسه مصوراً ماهراً، تلقى الفن على المصور المشهور سلطان محمد، وكانت بينه وبين بهزاد وأغا ميرك صداقة طيبة[١]. والمعروف أن ازدراء المصورين قل فى عهد الأسرة الصفوية؛ وإذا كانوا ظلوا مهضومى الحقوق منخفضى المكانة فإن الأمراء وكبار رجال الدولة كانوا

(١) راجع Sakisian: La Miniature Persane ص١١٩ و Blochet; notice sur la collection Marteau ص ١٣٧-١٣٨.

يتهافتون على اقتناء آثارهم، وظهرت تبعًا لذلك مخطوطات فيها عدد كبير من الصور[١].

وتظهر فى الصور الصفوية عظمة ذلك العصر وأبهته، وأكثر ما تعرض لتمثيله مأخوذ من حياة البلاط والطبقة الأرستقراطية، والقصور الجميلة والحدائق الغناء؛ وتمتاز الأشخاص فى هذه الصور بالقدود الهيفاء والملابس الفاخرة. وأما رسومها فغاية فى الدقة، كما أن ألوانها كثيرة التنوع؛ ففيها الألوان الساطعة الزاهية التى اشتهرت بها المدرسة التيمورية، وفيها ألوان أخرى أكثر هدوءا، وهناك عدا ذلك عناية ظاهرة فى تخير موضوعات الصور وفى التأليف التصويرى على وجه عام[٢].

ومما يميز الصور الصفوية لا سيما غير المتأخرة منها لباس الرأس، فإنه مكون من عمامة ترتفع باستدارة تبرز من أعلاها عصا صغيرة حمراء. وإذا كان وجود هذه العمامة فى صورة من الصور يدل على أنها ترجع إلى عصر الأسرة الصفوية، فإن وجود غيرها أو عدم وجودها هى لا يحتم أن تكون الصورة من غير هذا العصر. والظاهر أنها كانت بادئ ذى بدء شعار أفراد الأسرة الصفوية وأتباعهم، وكانت العصا الصغيرة حمراء دائمًا كما يتبين من الصور التى ترجع إلى أوائل العصر الصفوى. ولكن ما لبثت أهميتها تقل وبدأ الناس والمصورون يغيرون لون العصا عندما رسخ قدم الأسرة ولم تعد ثمة مقاومة لها، حتى ليمكننا أن نلاحظ ندرتها فى الصور الصفوية بعد وفاة الشاه طهماسب سنة ١٥٧٦هـ (٩٨٤).

---

(١) راجع الفصل الأول من كتاب Painting للسير توماس ارنولد.

(٢) قارن Gluck und Diez: Kunst des Islams ص ٩٧-٩٨.

ومما يمتاز به القرن العاشر الهجرى (السادس عشر) فى تاريخ التصوير الفارسى أن الوحدة السياسية فى العصر الصفوى قضت على الفروق فى الصناعة بين الأنحاء المختلفة فى إيران، فأصبح من العسير التفرقة بين الصور المصنوعة فى شرقى الإمبراطورية وما صنع فى الوسط أو فى الغرب؛ إذ أن المصورين كانوا فى كافة أنحاء الإمبراطورية يقلدون مصورى البلاط فى تبريز وقزوين ولم تكن هناك إلا فوارق يسيرة جداً بين منتجات الفنانين العاديين فى مختلف الأقاليم الإيرانية.

وهناك عدد من المخطوطات تمثل صورها عصر الانتقال من المدرسة التيمورية فى هراة إلى عصر الشاه إسماعيل وابنه الشاه طهماسب. ومن أهم هذه المخطوطات واحد فى المكتبة الأهلية بباريس لمير على شير نوائى، كتب فى هراة سنة ٩٣٥هـ (١٥٢٧)، ومن المحتمل أن يكون ما فيه من صور قد أضيف إليه فى تبريز بيد بهزاد وتلاميذه[١].

وفى متحف المتروبوليتان بنيويورك مخطوط جميل من «المنظومات الخمسة» لنظامى[٢]، كتبه فى سنة ٩٣١هـ (١٥٢٤-١٥٢٥) سلطان محمد نور الخطاط الكبير، وفيه خمس عشرة صورة تمتاز كلها بألوانها الجميلة، ورسومها الفنية، وزخارفها الدقيقة، ولا يدرى المرء بأيها يعجب، أبهذه التى تمثل ليلى وحبيبها المجنون فى المدرسة وعلى بابها بيت شعر بالفارسية يطلب إلى المعلم «ألا يلقن هذه الفتاة الشقراء ذات الوجه الجميل غير كل طيب هى جديرة به»[٣]، أم بسبع الصور التى تمثل بهرام جور مع سبع الأميرات التى

---

(١) راجع Binyon, Wilkinson & Gray; ibid ص١٠٧ - ١٠٨.

(٢) راجع ... ... Dimand: A Handbook ص٣٦-٣٨.

(٣) انظر Dimand; ibid اللوحة الأولى وقارن L. Binyon: The Poems of Nizami ص٢٧.

تزوجهن، وكان يزور كل واحدة منهن فى قصر يسوده أحد الألوان السبعة: الأسود والأصفر والأخضر والأحمر والصندلى والأبيض والأزرق الفيروزى. وقد نسب مارتن صور هذا المخطوط إلى أغا ميرك ونسبها ساكسيان إلى محمود مذهب(١).

على أن أجمل مخطوطات القرن العاشر الهجرى (السادس عشر) على الإطلاق هو ذلك الذى يشتمل «المنظومات الخمسة» لنظامى، والذى كتبه للشاه طهماسب بين سنتى ٩٤٦ و٩٥٠هـ (١٥٣٩-١٥٤٣) الخطاط المشهور شاه محمود النيسابورى، وهو محلى بأربع عشرة صورة كبيرة تعتبر من أنفس ما فى المتحف البريطانى من تحف شرقية؛ ولا غرو فإن عليها إمضاءات كبر فنانى العصر الصفوى وهم: سيدى على، وسلطان محمد، وميرك، وميرزا على، ومظهر على.

وصفحات هذا المخطوط كلها بهوامش مذهبة فيها نقوش نباتية ورسوم حيوانات طبيعية وخرافية وأغلب الصور عليها إمضاءات قد لا تكون من كتابة الفنانين أنفسهم ولكن لا شك فى أنها معاصرة ويمكن الوثوق بصحتها، وإن كان من غير المستحيل أن تكون الصور كلها بريشة مصور واحد وقد نشر الأستاذ بنيون Laurence Binyon هذه الصور مع دراسة طريفة فى موضوعات المنظومات الخمسة لنظامى(٢).

وينسب إلى ميرك خمس صور من هذا المخطوط والواقع أن فى المصادر الفارسية والتركية ذكرا لثلاثة مصورين بهذا الاسم، الأول خواجه ميرك عاش فى هراة فى أواخر القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر) ومات فى زمن

(١) راجع .... Dimand : ibid ص٣٦-٣٨ وSakisian: La Miniature Persane ص٩٧-٩٨.

(٢) راجع The Poems of Nizami, described by Laurence Binyon 1928

اللوحة رقم (٣١)

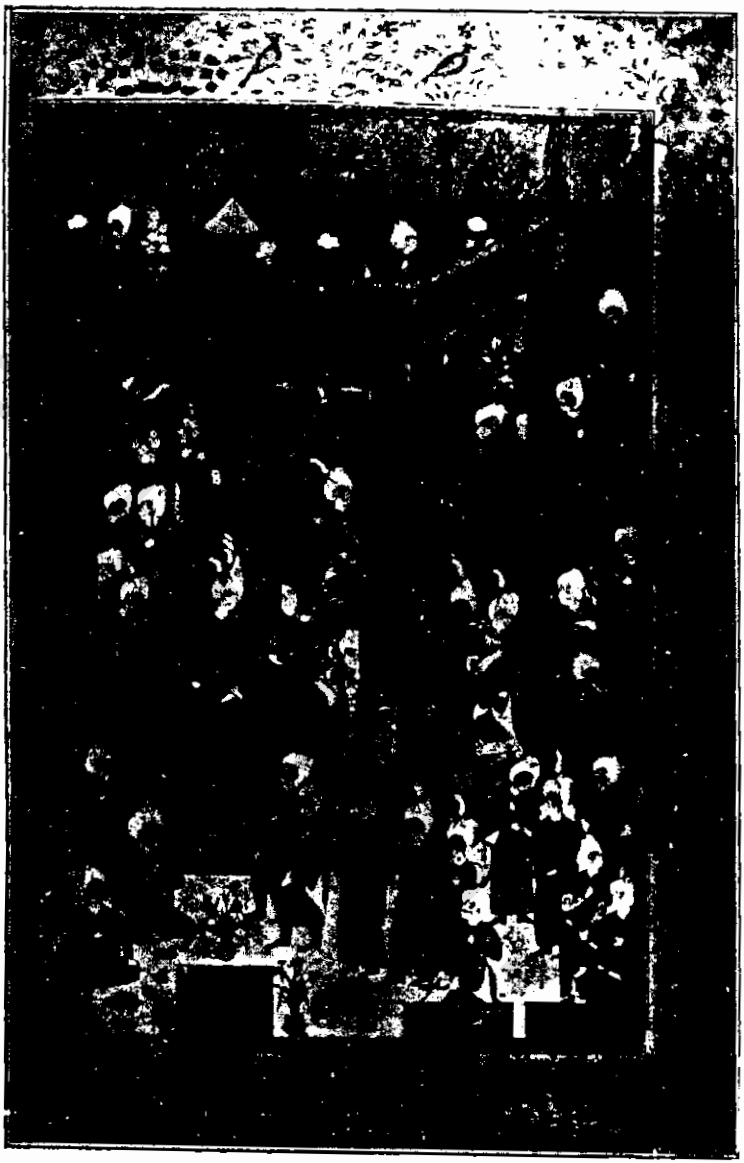

(شكل ٤٢)

تتويج خسرو

لميرك. المدرسة الصفوية ٩٤٦ - ٩٥٠هـ (١٥٣٩-١٥٤٣)

من مخطوط نظامى للشاه طهماسب بالمتحف البريطانى

اللوحة رقم (٣٢)

(شكل ٤٣)

الطبيبان المتناظران

المدرسة الصفوية القرن العاشر الهجرى

من نظامى مخطوط للشاه طهماسب محفوظ بالمتحف البريطانى

اللوحة رقم (٣٣)

(شكل ٤٤)

المجنون يقاد فى أغلاله إلى ربع ليلى

للمصور مير سيد على. المدرسة الصفوية ٩٤٦-٩٥٠هـ (١٥٣٩-١٥٤٣)

من مخطوط نظامى للشاه طهماسب بالمتحف البريطانى

اللوحة رقم (٣٤)

(شكل ٤٥)

المعراج

المدرسة الصفوية القرن العاشر الهجرى

من نظامى مخطوط للشاه طهماسب محفوظ بالمتحف البريطانى

اللوحة رقم (٣٥)

(شكل ٤٦)

خسرو يفاجئ شيرين تستحم

للمصور سلطان محمد. المدرسة الصفوية ٩٤٦-٩٥٠هـ (١٥٣٩-١٥٤٣)

من مخطوط نظامى للشاه طهماسب بالمتحف البريطانى

اللوحة رقم (٣٦)

(شكل ٤٧)

مجلس وعظ

للمصور شيخ زاده. المدرسة الصفوية فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى

مجموعة كارتييه

اللوحة رقم (٣٧)

(شكل ٤٨)

عجوز تطلب إلى السلطان سنجر أن ينظر فى مظلمة لها

للمصور سلطان محمد. المدرسة الصفوية ٩٤٦-٩٥٠هـ (١٥٣٩-١٥٤٣)

من مخطوط نظامى للشاه طهماسب بالمتحف البريطانى

استيلاء محمد خان شيبانى على تلك المدينة، والثانى حاج ميرك الذى كان خطاطا فى بخارى، وأما الثالث وهو أشهرهم فهو أغا ميرك الأصفهانى الأصل، والذى عمل فى بلاط الشاه طهماسب فى تبريز وإليه تنسب الصور الممضاة باسمه فى المخطوط الذى نحن بصدده[١].

وقد كتب سام ميرزا أخو الشاه طهماسب سنة ٩٥٧هـ (١٥٥٠) أن أغا ميرك كان مصور البلاط لا يبارى، ولم يكن له منافس قط. وذكر المؤرخ التركى أعالى أن أغا ميرك كان تلميذاً لبهزاد، وأن اثنين من كبار المصورين درسا عليه وهما سلطان محمد التبريزى الذى سيأتى الكلام عليه، وشاه قولى الذى عمل فى بلاط سليمان القانونى.

ولا ريب أن براعة أغا ميرك وحذقه لفن التصوير يظهران جليًا فى هذه الصور الخمس التى تمثل إحداها كسرى أنوشيروان يصغى للبومتين اللتين تتحدثان على أنقاض قصر قديم. ويرى فى الثانية مجنون ليلى فى الصحراء وحوله حيوانات برية رسمها آية فى الدقة والجودة، بينما تمثل ثلاث الصور الباقية مناظر فى بلاط الشاه وحفلات تتجلى فيها العظمة والأبهة[٢].

أما سلطان محمد فتنسب إليه صورتان من هذا المخطوط تمثل الأولى خسرو يفجأ شيرين تستحم[٣]، ويرى فى الثانية بهرام جور يصيد الأسد. والصورتان تكفيان للدلالة على إتقان لمزج الألوان ليس بعده إتقان، وعلى مراقبة دقيقة للطبيعة ومراعاة لأصولها، مع براعة فائقة فى رسم الوجوه الآدمية والحيوانات ولا سيما الخيل. وفى المخطوط نفسه صورة أخرى تمثل

---

(١) راجع Sakisian; La Miniature Persane ص١٠٩ وما بعدها.

(٢) انظر اللوحة ٣١ شكل ٤٢.

(٣) انظر اللوحة ٣٥ شكل ٤٦.

عجـوزاً تطلب إلى السلطان سنجر أن ينظر فى مظـلمة لها. وحـيوانات هذه الصورة وغير ذلك من تفاصيلها تجعلنا نوافق الأستـاذ ساكسيان فى نسبتها إلى سلطان محمد[١].

على أننا لا نعرف كـثيرا عن حيـاة هذا المصور ولا سيمـا بعد أن أثبت ساكسيان خطأ مـا كتبه عنه مارتن[٢]، ومهمـا يكن من شىء فإن صورة التى وصلت إلينا كفيلة بأن تقول الشىء الكثير.

ولعل أبدع ما صـوره سلطان محمـد، وأكثره حـركة، وأخفـه روحا، وأكثره دعابة، صورة فى مـخطوط من ديوان حافظ تمثل منظر شراب تدار فيه كؤوس الراح فيشرب أناس ويرقص آخرون، ويتدحرج البعض على الأرض، ويترنح من أسكرتهم الخـمر، وينظر شيخ فى مرآة فى يده، ويشـترك الملائكة فى الشراب من شرفة تطل على الباقين، بينما يطرب الجـميع موسيقيون بينهم ثلاثة وجـوههم أشبه شـىء بوجوه القردة. وفى طـرف الصورة حديقـة تطل عليها شرفة وقف فيهـا رجل فى يده حبل طويل يتدلى إلى ساق يربط له فيه إبريق من الخمر[٣].

ومما ينسب إلى سلطان محـمد صور الشـاهنامة الشهيـرة الموجودة الآن بمجموعة البارون دى روتشيلد، والتى تشمل ٢٥٦ صورة كـبيرة فيها كثير من مناظر القتال والصيد.

ويلوح لنا أن سلطان محمد تولى حـينًا من الزمن إدارة مدرسة التصوير أو مجـمع الفنون الجميلة فى تبـريز، وأنه عنى ببقـية الفنون الزخرفـية فكان

---

(١) انظر اللوحة ٤٧ شكل ٤٨.

(١) راجع Sakisian: La Miniature Persane ص ١١٠.

(٢) انظر اللوحة ٣٨ شكل ٤٩.

اللوحة رقم (٣٨)

(شكل ٤٩)

مجلس شراب

للمصور سلطان محمد. المدرسة الصفوية فى أوائل القرن العاشر الهجرى

مجموعة كارتييه

اللوحة رقم (٣٩)

(شكل ٥٠)

صورة أمير

للمصور سلطان محمد أو مدرسته. نحو سنة ٩٣٥هـ

المكتبة الأهلية بلينينجراد

اللوحة رقم (٤٠)

(شكل ٥١)

صورة أمير

للمصور سلطان محمد حول سنة ٩٣٥هـ

عن مارتن

اللوحة رقم (٤١)

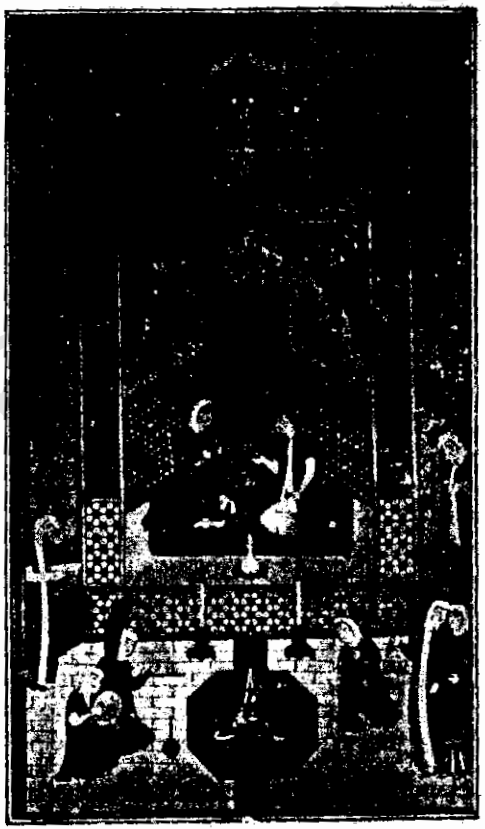

(شكل ٥٢)

بهرام جور مع إحدى زوجاته فى القصر الأسود

للمصور ميرك سنة ٩٣١هـ

من نظامى مخطوط بمكتبة جلالة الشاه

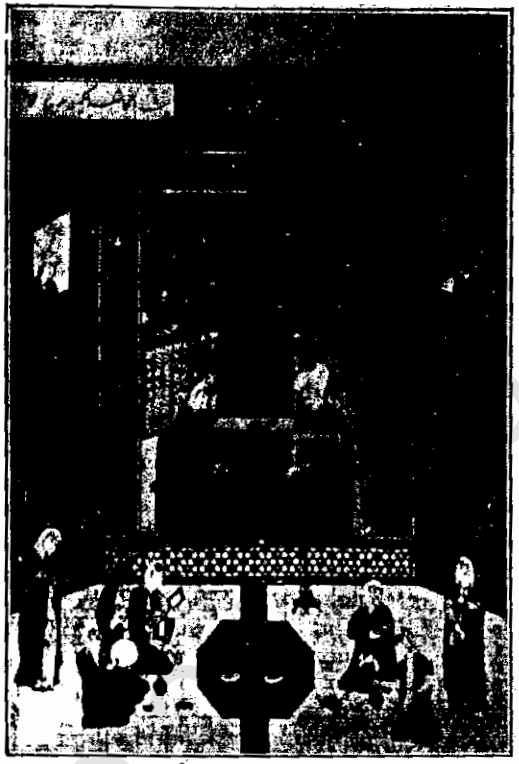

(شكل ٥٣)

بهرام جور مع إحدى زوجاته فى القصر الأسود

للمصور محمود المذهب حول سنة ٩٣٢هـ (؟)

من مخطوط لمنظومات مير على شيرنوائى محفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس

يرسم تصميمات السجاجيد والخزف، ويظهر تأثير طرازه وصناعته فى الرسوم الآدمية التى نراها على الأقمشة الحريرية الفارسية فى القرن العاشر (السادس عشر).

وممن اشتهر من المصورين فى بلاط الشاه طهماسب مظفر على، الذى وصل إلينا من أعماله صورتان فى مكتبة لينينجراد، والذى رسم فى مخطوط المتحف البريطانى السالف الذكر صورة تمثل بهرام جور يثبت بسهم واحد أذن حمار وحشى بقدمه، ليثبت لحبيبته (ازاده) براعته فى الصيد. وكان مظفر على تلميذًا لبهزاد، وامتاز ببراعته فى رقم صور الأشخاص، وبحبه للون الذهبى فى تصويره، وتولى عمل الصور اللازمة للقصر الملكى ولقاعة چهل ستون فى أصفهان(١).

وهناك مصوران لهما أهمية خاصة هما: مير سيد على، وعبد الصمد، وقد لعبا دورا كبيرا فى نشأة المدرسة الهندية الفارسية فى بلاط الهند.

أما مير سيد على فقد كان تبريزى الموطن واشترك فى تصوير مخطوط نظامى الذى عمل للشاه طهماسب بالمتحف البريطانى. فرسم صورة تمثل عجوزًا تقود المجنون إلى ربع ليلى، وهو يرسف فى أغلاله والصبية يقذفونه بالأحجار، وليلى جالسة أمام خيمتها. وفى الصورة خيام أخرى انصرف من فيها من النساء إلى الأعمال المنزلية المختلفة وراعيان يحرسان قطيعًا من الغنم وفى يد أحدهما مغزل بينما الثانى يعزف فى مزمار(٢).

والظاهر أن همايون الإمبراطور المغولى فى الهند لقى المصورين مير سيد على وعبد الصمد فى تبريز حين لجأ إليها وعاش فى بلاط الشاه طهماسب

(١) راجع Binyon, Wilkinson & Gray; ibid صـ١١٥.

(٢) انظر اللوحة ٣٣ شكل ٤٤.

بعد أن خسر عرش الهند، وكان همايون شديد الإعجاب بمير سيد على فمنحه لقب نادر الملك. ولحق المصوران بالأمير فى كابل حيث عهد إليهما بعمل ١٤٠٠ صورة كبيرة لقصة الأمير حمزة الفارسية[١].

وقد تلقى همايون وابنه أكبر دروسا فى التصوير على مير سيد على وعبد الصمد اللذين وليا تباعا إدارة مدرسة التصوير التى أنشأها الإمبراطور أكبر بمساعدة تلاميذهما من الهنود على رسم الصور التى طلبها همايون لقصة الأمير حمزة. وقد وصل إلينا عدد كبير من هذه الصور المرسومة على القماش والمحفوظ أغلبها فى متحف فينا[٢]. وقد نبغ من التلاميذ الهنود الذين تلقوا الفن على هذين المصورين اثنان هما دارونت وبازوان.

وأكبر الظن أن مير سيد على عبد الصمد أو هما معًا رسما لهمايون تلك الصورة الكبيرة التى تمثل أفراد أسرة تيمور، وهى محفوظة الآن بالمتحف البريطانى، وقد رسمت على القماش مثل صور قصة الأمير حمزة، ولكنها الآن ليست فى حالة جيدة من الوضوح تساعد على دراستها بدقة وعناية.

بقى علينا قبل أن نختم هذا الفصل أن نشير إلى المصور محمدى الذى درس فن التصوير على والده سلطان محمد، وتفوق عليه فى رسم المناظر الريفية. وفى الحق إن أكثر ما وصل إلينا من تصوير محمدى له علاقة كبيرة بالريف والمناظر الطبيعية. ولعل أبدعه الرسم المحفوظ باللوفر، والذى يرجع إلى سنة ٩٨٦هـ (١٥٧٨) ويمثل نواحى مختلفة من الحياة الريفية. فهناك فلاح يحرث الأرض وآخر جالس تحت شجرة عليها طيور، وبقربهما راع

(١) راجع Persy Brown; Indian Painting Under the Mughals ص٤١، ٥٣، ٥٤ و Saki-sian; La miniature persane ص١١٦-١١٧.

(٢) راجع Die indischen miniaturen des Haemzae Romanes, hrsg. Von H. Gluck, Wien 1925.

يحرس قطيعًا من الغنم ويعزف على مزمار فى يده، وخيمتان فيهما نساء يغزلن وينسجن. وهذا الرسم كغيره من رسوم محمدى ليس ملونًا كله بل فيه قليل من اللون الأحمر فى الصخور والحيوانات(١).

أما المصورون الآخرون الذين وصل إلينا خبر اشتغالهم فى عصر الشاه طهماسب فإن المجال لا يتسع هنا لدراستهم تفصيلا ويكفى أن نشير إلى أعظمهم وهم: سيد مير نقاش، وشاه محمد، ودوست محمد، وشاه قولى التبريزى(٢).

***

(١) راجع Stchoukine; Les Miniatures Persanes ص٥١.

(٢) راجع كتاب الأستاذ ساكسيان لمعرفة تراجم هؤلاء المصورين.

obeikandl.com

اللوحة رقم (٤٢)

(شكل ٥٤)

منظر ريفى

للمصور محمدى سنة ٩٨٦هـ

بمتحف اللوفر بباريس